سعيد سنبل

عملة . . اسمها الأمل

obeikandl.com

obeikandl.com

وفى أعقاب ٦ أكتوبر ، عاد الأمل إلى مصر .

الأمل فى حياة أفضل . .

الأمل فى مستقبل أكثر إشراقاً ، وأكثر لمعاناً . .

الأمل فى عودة الابتسامة إلى الشفاه التى تحملت مرارة الألم سنين طويلة . .

لقد كانت آلام الشعب المصرى عظيمة ، وكبيرة . .

وكاد شعب مصر فى ظل هزيمة ١٩٦٧ أن يفقد الأمل فى المستقبل ، ويقع فريسة لليأس . . والويل لشعب يقع فريسة لليأس ، ويفقد الأمل فى المستقبل !

وتكاثفت قوى عديدة من أجل تحطيم نفسية الشعب المصرى . . ومن أجل بث اليأس فى نفوس أبنائه . ولكن هذه المحاولات فشلت وتحطمت فى أعقاب معارك ٦ أكتوبر . لقد أثبتت هذه المعارك قدرة المصريين على التخطيط . . على التنفيذ . . على القتال . . على استخدام الأسلحة المتطورة الحديثة . . ومن ناحية أخرى كشفت هذه المعارك عن حقيقة العدو . . عدو يمكن قهره ، ويمكن إنزال الهزيمة به .

وتبدَّد الياس . . وعاد الأمل .

ومع عودة الأمل عاد التفكير فى المستقبل ، بعد أن كاد التفكير فيه يتوقّف وينعدم !

وعادت الأسئلة تتردّد عن المستقبل ، وما يمكن أن يحقّق من أحلام عريضة واسعة لشعب عاش سنين طويلة فى ظل حرمان وتقشف !

لقد تسببت هزيمة ١٩٦٧ فى خلق وضع جديد فى مصر ، لا أعتقد أنّ هناك من كان يتصوّر قيامه . تسببت الهزيمة فى خنق الاقتصاد المصرى ، وفى توقّف نموّ الخدمات ، وفى انهيار المرافق العامة نتيجة العجز فى الإنفاق عليها وتجديدها . تسببت فى توقّف نموّ الصناعة ، بل فى تراجع بعض الصناعات ، وظهور طاقات عاطلة فيها ، نتيجة لعدم القدرة على تجديد المصانع ، ولنقص المواد الخام اللازمة لتشغيل الآلات .

وكانت كل هذه الأوضاع نتيجة طبيعية لهزيمة ١٩٦٧ .

لقد فقدت مصر سلاحها فى هذه الحرب ، وكان لا بد من تعويض هذا السلاح . . كان لا بد من إعداد جيش جديد قوىّ قادر على الحرب بالسلاح ، لا الحرب بالكلمات والتصريحات الخادعة المضلّلة . . . وبناء الجيوش الحديثة المزوّدة بالأسلحة المتطورة يحتاج إلى أموال بالقدر نفسه الذى يحتاج به إلى رجال . . يحتاج إلى مئات الملايين من الجنيهات . . بل يحتاج إلى آلاف الملايين .

وكان على مصر أن توفّر هذه الملايين . . أقصد ألوف الملايين . توفرها من غذائها ، ومن كسائها ، ومن خدماتها . وبالفعل فُرضت ضرائب جديدة على الشعب ، وتحمّلها الناس راضين غير معترضين . وانخفض معدل الإنفاق على التنمية . . كذلك انخفض الإنفاق على الخدمات . . كل هذا من أجل توفير الأموال للمعركة .

ومضت سنة وراء أخرى . .

وبدأت الجماهير تحسّ بقسوة الإعداد للمعركة .

إن الخدمات الرئيسية لا تتجدد ، ولا تتطور . حاجة الناس إلى الخدمات تتزايد ، وقدرة الخدمات على مواجهة احتياجات الجماهير تقف عاجزة ! ! المواصلات . . أصبحت مشكلة كل بيت ! مرافق المياه والكهرباء وصلت إلى

مستوى من التخلف لم يكن أحد يتصوره ! الدواء . . ساعة موجود ، وساعات عديدة غير متوافر !

والغذاء أيضاً . . لم يعد متوافراً كما كان من قبل . . وبدأت مدينة كالقاهرة ، تعتاد ظاهرة الطوابير التى تقف فى غير نظام أمام الجمعيات الاستهلاكية ، للحصول على السلع التى يفتقر إليها السوق .

وتحمل الناس كل هذه الأعباء التى فرضتها الهزيمة العسكرية . . تحمّلوها من أجل يوم ترتفع فيه الرءوس ، وتنفض الأكتاف عنها عار الهزيمة .

وجاء اليوم . .

٦ أكتوبر ١٩٧٣ . .

ارتفعت الرءوس من جديد . . وسقط العار . .

وبدأ الحديث عن المستقبل . . برغم أنّ الحرب لم تنته بعد ، وبرغم أنّ المعارك العسكرية قد تتجدد مرة أخرى .

ومن حقّ المصريين أن يتحدّثوا عن المستقبل . .

إنهم – بعد الفلسطينيين – تحمّلوا ما لم يتحمّله أى شعب عربىّ آخر على الأرض العربية . لقد ضحوا بكل ما يملكون . . لم يتاجروا بالكلمات . . لم يزايدوا بالشعارات . . إنما قدموا كل ما يملكون ، وأعزّ ما يملكون . .

قدّموا الأرواح ، والدماء ، والقوت اليومى .

صبروا . . احتملوا . . تعذّبوا . . وعاشوا فى ظل أقسى الظروف .

وشعب بَذَل كل هذه التضحيات ، من حقّه أن يتطلع إلى المستقبل .

وبدأت الأحلام الحلوة . .

وبدأ التفكير فى الرخاء ، بعد سنين طويلة من التقشف والحرمان .

ولكن . . كيف السبيل إلى الرخاء ؟ كيف الوصول إليه ؟

الانفتاح . .

الانفتاح . . هو السبيل إلى تحقيق كل الأحلام ، وتبديد كل المتاعب .

وبدأت كلمة الانفتاح تتردّد على الألسنة . . إنها الكلمة الجديدة التى دخلت حياة

المصريين بعد معركة العبور العظيمة . . إنها الكلمة القادرة على حل كل المشاكل وتبديد كل الصعاب !

بعد الانفتاح . . ستتوافر المواد التموينية . . يتوافر الطعام . . يتوافر الكساء . . تنتهى أزمة المواصلات . . تخفّ حدة أزمة الإسكان . . تتوافر المقاعد فى المدارس والأسرّة فى المستشفيات .

كل المشاكل تنتهى ، وتتمزق بعد الانفتاح .

وكان حماس الجماهير للانفتاح أكثر من حقيقته . . وكان حديث المسئولين عن الانفتاح أكبر من حجمه . .

لقد كثر الحديث عن الانفتاح . . حديث بالكلمات . . لا بالأفعال .

والكلمات قد تتحول إلى أوهام . أما الأفعال فهى حقيقة !

وكانت مشكلة الانفتاح ، أنها تحتاج إلى عقول متفتحة لتحول هذا الشعار إلى حقيقة وواقع . .

ويجب أن نعترف أن العقول فى مصر أُصيبت بالانغلاق ، وقد انعكس هذا الانغلاق على تصرفاتنا وسياستنا فى الستينيات ، وبداية السبعينيات .

ومن أهم مظاهر الانغلاق ، ادعاء القوة والتقدم فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وهذا ما حدث لنا فى مصر منذ بداية الستينيات .

بدأنا ندّعى القوة ، وندّعى التقدم ، ولا نسمح برأى يخالف هذا الرأى ، أو يعترض عليه !

وقامت مراكز قوى فى مصر ، استفادت من تلك الأوضاع ، واستغلتها لحسابها . فرضت الإرهاب تحت شعارات الاشتراكية . . وأخفت انحرافاتها وجرائمها تحت شعارات الثورية !

وفى ظل هذه الأوضاع ينعدم الرأى ، وتتوقف المناقشات . .

وهذا ما حدث .

انعدمت الآراء ، وتوقفت المناقشات . . وانغلقت العقول !

كيف يكون شكل التنمية ؟

لا أحد يجيب . . كل العقول مغلقة تنتظر رأى القيادة العليا ، لتعيده ، وتردده ، وتدعو إليه !

كيف تكون الصناعة فى مصر ؟

الأفضل هو ما تراه القيادة العليا . . لا ما يراه خبراء الصناعة ! إذا رأت القيادة أن مستقبل مصر فى التصنيع الثقيل . . فليكن التصنيع الثقيل ، وعلى خبراء الصناعة أن يبرروا لماذا التصنيع الثقيل ! !

لا مناقشة ، ولا تبادل للرأى .

وفى ظل هذا الوضع ، تجمدت قضايا عديدة .

مثلا . . هل نحن فى حاجة إلى رأس مال أجنبى ؟ . . وكيف ؟

هل نحن فى حاجة إلى خبرة أجنبية ؟ . . وكيف ؟

لا أحد يناقش هذه القضايا ، أو يجرؤ على إثارتها ما دامت القيادة العليا لم تثرها ، أو تطلب مناقشتها .

لا أحد يملك القدرة على التصرف ، أو البتّ ، أو الحسم . .

وكان هذا بدوره مظهراً آخر من مظاهر الانغلاق فى مصر . .

وقد كان من المفروض فى أعقاب عملية التأميمات الكبرى التى تمت فى ١٩٦١ ، أن تكون هذه العملية بداية لانطلاق وبداية لبناء اقتصادى جديد . .

كان المفروض أن يكون هذا التاريخ بداية لعصر جديد فى حياة مصر الاقتصادية ، بعد أن أعيدت صياغة العلاقات الاجتماعية . . ولكن – للأسف – عجز التطور الاقتصادى عن ملاحقة التطور الاجتماعى . وبدلاً من أن يكون التأميم بداية للانطلاق ، تحول التاميم إلى قيود فرضتها العقليات القائمة على إدارة القطاع العام ، من أجل حماية أخطائها ، وحماية عجزها إزاء اتخاذ القرارات .

وظلت الأوضاع على ما هى عليه . .

وكان يمكن أن تستمر سنوات أطول ، لولا هزيمة ١٩٦٧ ، وما فرضته من ضرورة تغيير الكثير من الأوضاع .

وكان من بين الأوضاع التى يجب تغييرها ، الوضع الذى يزعم القوة والتقدم ، فى وقت يعانى فيه المجتمع الضعف والتخلف . وبالطبع . . لم يكن التغيير سريعاً أو سهلا . . لم يكن من السهل مثلا أن نعترف بحاجتنا – برغم حاجتنا – إلى الاستثمارات العربية والأجنبية ، بعد أن صورنا هذه الاستثمارات بالاستغلال والنصب !

ولم يكن سهلا أن نعترف بحاجتنا إلى الخبرة الاجنبية بعد أن صورنا للعالم أننا قادرون على إنتاج الإبرة والصاروخ !

وبدأنا – فى أعقاب الهزيمة – نتلمس الطريق إلى هذه الأوضاع الجديدة ، بحياء وبحذر وسط استنكار المتاجرين بشعارات الاشتراكية . .

ولم يكن سهلا أن تأخذ الدعوة فى بداية الأمر شكلها الواضح ، وإلاّ اتهمت بأنها من صنع الرجعية والإمبريالية ! لذلك بدأت الدعوة إلى « الانفتاح » تحت اسم التيسير الاقتصادى . . واستمر استخدام هذا التعبير من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٣ ، عندما ارتفع شعار الانفتاح واضحاً صريحاً .

وقد لاقت الدعوة إلى الانفتاح استجابة شعبية على أمل أن تؤدى سياسة الانفتاح إلى التخلص من المشاكل والمتاعب . . والتخلص من الحرمان الطويل . . وإن كان البعض – وهم قلة معظمها يعيش خارج مصر – زعم أن الانفتاح هو الارتداد عن الاشتراكية . . وهم بهذا يسيئون إلى الاشتراكية ويصورونها بالحرمان والانغلاق والجوع ! !

وسياسة الانفتاح هى العودة إلى التعايش مع العالم الخارجى . . هى العودة إلى فتح الأبواب والنوافذ المغلقة ، والاحتكاك بالفكر الذى يعيش وراء هذه الأبواب والنوافذ . . هى السماح لرأس المال الأجنبى بالعودة إلى العمل فى مصر بعيداً عن الاستغلال والخوف فى نفس الوقت .

ومثل هذا الأمر لا يتحقق بين يوم وليلة . . يحتاج إلى وقت ، والأهم من الوقت أنه يحتاج إلى عقول متفتحة . وقد كان من الضرورى ، ونحن ندعو إلى سياسة الانفتاح أن نوضح هذه الحقيقة ، وأن نؤكدها ، حتى لا يتحول الانفتاح

إلى شعار زائف من الشعارات التى يجيد البعض ترديدها . .

وكما قلت فإن حماس الجماهير للانفتاح كان أكبر من واقع الانفتاح . . وهذا حق للجماهير . . وفى نفس الوقت كان حديث المسئولين عن الانفتاح أكثر وأكبر من حجمة وواقعة . . وهذا خطأ .

الواجب ألاّ نغرق الجماهير فى الأمل . . وإلا تحول الأمل إلى وهم . . وإلى سراب !

إن تحقيق سياسة الانفتاح تحتاج إلى أمور كثيرة . .

تحتاج أولا وقبل كل شىء إلى عقول متفتحة مؤمنة بما تفعله ، وقد عشنا سنين طويلة وعقولنا مغلقة . . لذلك لن يكون سهلا علينا أن نتغير فى يوم وليلة .

إننى أتصور مرحلة انتقال . . ستة أشهر . . سنة . . أو سنتين . . تنتقل فيها العقول من حالة الانغلاق إلى حالة الانفتاح . بعدها تبدأ القدرة على حل المشاكل ، وتبدأ القدرة على التخلص من الأزمات والاختناقات . . وتبدأ القدرة على العودة إلى الحياة الطبيعية . . والانطلاق بعد ذلك إلى تحقيق الأمل فى المستقبل .

إننى متفائل . . لأننا نملك عملة جديدة اسمها الأمل .